القلب المسكين

ـ ٧ ـ

وأمَّا صاحبُ القلب المسكين ؛ فما علم أنَّها قد رحلتْ عن ليلته حتَّى أظلم الظَّلامُ عليه ، كأنَّها إذا كانت حاضرةً أضاء شيءٌ لا يرى ، فإذا غابت ؛ انطفأ هذا الضَّوء ، ورأيتُه واجماً كاسف البال ، يَتنازعُهُ في نفسه ما لا أدري ، كأنَّ غيابها وقع في نفسه إنذارَ حربٍ .

لماذا كان الشُّعراء ينوحون على الأطلال ، ويلتاعُون[١] بها ، ويرتمضون[٢] منها ، وهي أحجارٌ ، وآثارٌ ، وبقايا ؟ وما الَّذي يتلقَّاهم به المكان بعد رحيل الأحبَّة ؟ يتلقَّاهم بالفراغ القلبيِّ ، الذي لا يملؤه من الوجود كلِّه إلا وجودُ شخصٍ واحدٍ ؛ وعند هذا الفراغ تقف الدُّنيا مليّاً كأنَّها انتهت إلى نهايةٍ في النَّفس العاشقة ، فتبطل حينئذٍ المبادلة بين معاني الحياة ، وبين شعور الحيِّ ؛ ويكون العاشق موجوداً في موضعه ، ولا تجده المعاني الَّتي تمرُّ به ، فترجع منه كالحقائق تُلمُّ بالفراغ العقليِّ من وعي سكران .

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما الَّذي يجعل فيك تلك القدرة السَّاحرة ؟ أهو فصلك بين زمنٍ ، وزمنٍ ، أم جمعك الماضيَ في لحظةٍ ؟ أم تحويلك الحياة إلى فكرةٍ ؟ أم تكبيرك الحقيقة إلى أضعاف حقيقتها ؟ أم تصويرك روحيَّة الدُّنيا في المثال الذي تحسُّه الرُّوح ؟ أم إشعارك النَّفس كالموت : أنَّ الحياةَ مبنيَّةٌ على الانقلاب ؟ أم قدرتك على زيادة حالةٍ جديدةٍ للهمِّ ، والحزن ، أم رجوعك باللَّذَّة ترى ، ولا تمكن ؟ أم أنت كلُّ ذلك ؛ لأنَّ القلب يفرغ ساعةً من الدُّنيا ، ويمتلئ بك وحدك ؟

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما هذه القوَّة السِّحريَّة فيك تحتذب بها الصَّدرَ ؛ ليضمَّكَ ، وتستهوي بها الفم ؛ ليقبِّلك ، وتستدعي الدَّمع ؛ لينفرَ لك ،

---

(١) « يلتاعون » : التاع فؤاده : احترق من الشَّوق ، أو الهمِّ .

(٢) « يرتمضون » : ارتمض فلانٌ من الأمر : اشتدَّ عليه ، فأقلقه .

وتهتاج الحنين ؛ لينبعث فيك ؟ أكلُّ ذلك لأنَّك أثر الحبيب ، أم لأنَّ القلب يفرغ ساعةً من الدُّنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك ؟

* * *

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأنَّ شيئاً يصله بكلِّ هموم العالم ؛ وتلك هي طبيعة الألم الذي يفاجىء الإنسان من مكمن لذَّته ، وموضع سروره ، فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها ، ويأخذ من قلبه شيئاً مات ، فيدفنه في قبر الماضي ، يكون ألماً ؛ لأنَّ فيه المضض ، وكآبةً ؛ لأنَّ فيه الخيبة ، وذهولاً ؛ لأنَّ فيه الحسرة ؛ وتتمُّ هذه الثَّلاثة الهموم بالضِّيق الشَّديد في النفس ، لاجتماع ثلاثتها على النَّفس ؛ فإذا المسكين مبغوتٌ مبغوتٌ مبغوتٌ ، كأنَّ الآلام أطبقت عليه من الجهات الأربع ، فقلبُه منها صُدوعٌ[1] ، صُدوعٌ .

وجعلتُ أعذل[2] صاحبنا فلا يعتذل ، وكلَّما حاولت أن أثبت له وجود الصَّبر ، كنت كأنَّما أثبت له أنَّه غير موجودٍ ؛ ثمَّ تنفَّس وهو يكاد ينشقُّ غيظاً ، وقال : لماذا رحلَتْ ؟ لماذا ؟

قلت : أنت أذللت جمالها بهذا الأسلوب الَّذي ترى أنَّك تعِزُّ جمالها به ، وقد اشتددت عليها ، وعلى نفسك ، وتعنَّتَّ[3] على قلبك ، وقلبها ؛ كانت ظريفة المذهب في عشقها ، وكنت خشناً في حبِّك ، وسوَّغتك[4] حقّاً ، فرددته عليها ، وتهالكتْ ، وانقبضتَ أنت ، ورفعتْ قدركَ عن نفسها تحبُّباً ، وتودُّداً ، فخفضتَ قدرها عن نفسك من اطِّراحٍ ، وجفاءٍ ، واستفرغتْ وسعها في رضاك ، فتغاضبتْ ، ونَضت[5] عن محاسنها شيئاً شيئاً ، تسأل بكلِّ شيءٍ سؤالاً ، فلم تكن أنت من جوابها في شيءٍ .

ومن طبع المرأة : أنَّها إذا أحبَّت ؛ امتنعتْ أن تكون البادئة ، فالتَوَت[6] على

---

(١) « صدوع » : جمع صَدْع ، وهو الشَّقُّ في شيء صُلْب .
(٢) « أعذل » : ألوم .
(٣) « تعنت » عليه : شدَّد عليه ، وألزمه بما يصعب أداؤه .
(٤) « سوغتك » : سوَّغ الأمر : أباحه ، وجَوَّزه .
(٥) « نضت » : نضى الثَّوب عنه : خلعه ، وألقاه عنه .
(٦) « التوت » : التوى فلانٌ عن الأمر : تثاقل ، وانعطف عنه .

صاحبها ، وهي عاشقةٌ ، وجاحدَت ، وهي مُقِرَّةٌ ؛ إذ تريد في الأَوَّليَّة أن تتحقَّق أنَّها محبوبةٌ ، وفي الثَّانية أن يُقدِّم لها البرهان على أنَّها تستحقُّ المهاجمة ، وفي الثَّالثة هي تريد ألا تأخذها إلا قوَّةٌ قويَّةٌ ، فتمتحن هذه القوَّة ، ومع هذه الثَّلاث تأبى طبيعة السُّرور فيها ، والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السُّرور ، وهذا الإمتاع شأنٌ ، وقيمةٌ ، فتذيق صاحبها المرَّ قبل الحلو ؛ ليكبر هذا بهذا .

غير أنَّها إذا غلبها الوَجْد ، وأكرهها الحبُّ على أن تبتدئ صاحبها ، ثمَّ ابتدأتْ ، ولم تجد الجواب منه ، أو لم يأتِ الأمر فيما بينها وبينه على ما تحبُّ ؛ فإنَّ الابتداءَ حينئذٍ يكون هو النِّهاية ، وينقلب الحبُّ عدوَّ الحبِّ ؛ وأنا أعرف امرأةً وضعتْها كبرياؤها في مثل هذه الحالة ، وقالت لصاحبها : سأتألَّم ، ولكن لن أغلَب ، فكان الذي وقع وا أسفاه ! أنَّها تألَّمت حتَّى جُنَّت ، ولكن لم تُغلب(١) .

قال : فما بال هذه ؟ أما تراها تبتدئ كلَّ يومٍ رجلاً ؟

قلت : إنَّها تبتدئ متكسِّبةً لا عاشقةً ، فإذا أحبَّت الحبَّ الصَّحيح أرادَتْ قيمتها فيما هو قيمتُها ، وأنا أحسبها تحبُّ فيك هذا العنفَ ، وهذه القسوةَ ، وهذه الرُّوحيَّةَ الجبَّارةَ ، فإنَّها لذَّاتٌ جديدةٌ للمرأة ؛ التي لا تجد من يُخضِعها ، وفي طبيعة كلِّ امرأةٍ شيءٌ لا يجد تمامَه إلا في عنف الرَّجل ، غير أنَّه العنف الذي أوَّله رقَّةٌ ، وآخره رقَّةٌ !

* * *

أما والله إنَّ عجائب الحبِّ أكثر من أن تكون عجيبةً ! والشَّيء الغريب يسمَّى غريباً ، فيكفي ذلك بياناً في تعريفه ، غير أنَّه إذا وقع في الحبِّ ، سمِّي غريباً ، فلا تكفيه التَّسمية ، فيوصف مع التَّسمية بأنَّه غريبٌ ، فلا يبلغ فيه الوصف ، فيقع التَّعجيب مع الوصف ، والتَّسمية من أنَّه شيءٌ غريبٌ ، ثمَّ تبقى وراء ذلك منزلةٌ للإغراق في التَّعجُّب بين العاشق وبين نفسه ، وهكذا يشعرون .

فكلُّ أسرار الحبِّ من أسرار الرُّوح ، ومن عالم الغيب ، وكأنَّ النُّبوَّة نبوَّتان كبيرةٌ وصغيرةٌ ، وعامَّةٌ وخاصَّةٌ . فإحداهما بالنَّفس العظيمة في الأنبياء ، والأخرى بالقلب الرَّقيق في العشَّاق ، وفي هذه من هذه شَبهٌ ؛ لوجود العظمة الرُّوحيَّة في

(١) انظر قصَّة هذه الحبيبة الَّتي تألَّمت حتى جنَّت في «الرافعي العاشق» من «حياة الرافعي» . (س) .

كلتيهما غالبةً على المادَّة ، مجرَّدةً من إنسان الطِّين إنساناً من النُّور ، محرِّكةً هذه الطَّبيعة الآدميَّة حركةً جديدةً في السُّموِّ ، ذاهبةً بالمعرفة الإنسانيَّة إلى ما هو الأحسن ، والأجمل ، واضعةً مبدأ التَّجديد في كلِّ شيءٍ يمرُّ بالنَّفس ، منبعثةً بالأفراح من مصدرها العلويِّ السَّماويِّ .

بيد أنَّ في العشق أنبياء كذبةً ، فإذا تسفَّل الحبُّ في جلالٍ ، واستعلنت البهيميَّة في عظمةٍ ، وتجرَّد من إنسان الحجر ، وتحرَّكت الطَّبيعة الآدميَّة حركةً جديدةً في السُّقوط ، وذهبت المعرفة الإنسانيَّة إلى ما هو الأقبح ، والأسوأ ، وتجدَّد لكلِّ شيءٍ في النَّفس معنى فاسدٌ ، وانبعثت الأفراح من مصدرها السُّفليِّ ، إذا وقع كل هذا من الحبِّ ، فما عساه يكون ؟

لا يكون إلا أنَّ الشَّيطان يقلِّد النُّبوَّة الصَّغيرة في بعض العشَّاق ، كما يقلِّد النُّبوَّة الكبيرة في بعض الدَّجَّالين .

* * *

هكذا قال صاحب القلب المسكين ، وقد تكلَّم عن الحبِّ ونحن جالسان في الحديقة ، وكنَّا دخلناها ليجدِّد عهداً بمجلسه ، فلعلَّه يسكن بعض ما به ، واستفاض كلامنا في وصف تلك العبهرة[1] الفنَّانة الَّتي أحلَّته هذا المحلَّ ، وبلغت به ما بلغت ، وكان في رقَّةٍ لا رِقَّةَ بعدها ، وفي حبٍّ لا نهاية وراءه لمحبٍّ ، وخيَّل إليَّ : أنَّه يرى الحديث عنها كأنَّه إحضارها بصورةٍ ما !

وأنفع ما في حديث العاشق عن حبِّه ، وألمه : أنَّ الكلامَ يخرجه من حالة الفكر ، ويؤنس قلبه بالألفاظ ، ويخفِّف من حركة نفسه بحركة لسانه ، ويوجِّه حواسَّه إلى الظَّاهر المتحرِّك ، فتسلبه ألفاظه أكثر معانيه الوهميَّة ، وتأتيه بالحقائق على قدرها في اللُّغة ، لا في النَّفس ، وفي كلِّ ذلك حيلةٌ على النِّسيان ، وتعلُّل إلى ساعةٍ ؛ وهو تدبيرٌ من الرَّحمة بالعاشقين في هذا البلاء ، الذي يُسمَّى : الفراق ، أو الهجر .

وكان من أعجب ما عجبتُ له أنَّ صديقاً مرَّ بنا ، فدعاه صَاحبنا ، وقال وهو يومئ إليَّ : أنا وفلانٌ هذا مختلفان منذ اليوم : لا هو يقيم عذراً ، ولا أنا أقيم

(١) هي التي جمعت الحسن ، والجسم ، والامتلاء ، وجمال الخلقة من كلِّ ناحية ؛ كهذه التي نحن في وصفها منذ شهرين . (ع) .

حجَّةً ، وأحسب أنَّ عندك رأياً ؛ فاقضِ بيننا .

ويسأله الصَّديق : ما القضيَّة ؟ فيقول وهو يشير إليَّ :

إنَّ هذا قد تخرَّق قلبه من الحبِّ ، فلا يدري من أين يجيء لقلبه برقعةٍ . . . إنَّه يعشق فلانةَ الرَّاقصة ؛ الَّتي كانت في هذا المسرح ، ويزعم لي . . . أنَّها أجمل ، وأفتن ، وأحلى مَنْ طلعت عليه الشَّمس ، وأنَّه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأةٍ أخرى في كل ما يضيء القمر عليه ، وأنَّ عينيها ممَّا لا يُنسى أبداً ، أبداً ، أبداً . . . لأنَّ ألحاظها تذوب في الدَّم ، وتجري فيه ، وأنَّ الشَّيطان لو أراد مناجزة العفَّة ، والزُّهد في حربٍ حاسمةٍ بينه وبين أزهد العباد ؛ لترك كلَّ حِيَله ، وأساليبه ، وقدَّم جسمها ، وفنَّها .

فيقول له المسؤول : وما رأيك أنت ؟

فيجيبه : لو كان عنها صاحياً ؛ لقد صحا ، إن المشكلة في الحبِّ : أنَّ كلَّ عاشقٍ له قلبُه ، الذي هو قلبُه ، وحسبُها أنَّ مثل هذا هو يصفها ، وما يدرينا من تصاريف القدَر بهذه المسكينة ما عليها ممَّا لها ، فلعلَّها الجمل حُكم عليه أن يعذَّب بقبح النَّاس ، ولعلَّها السُّرور قضي عليه أن يسجن في أحزانٍ !

* * *

وقلت له : يا صديقي المسكين ! أوَ كلُّ هذا لها في قلبك ؟ فما هذا القلب الذي تحمله ، وتتعذَّب به ؟!

قال : إنَّه والله قلب طفلٍ ، وما حبُّه إلا التماسُه الحنان الثَّاني من الحبيبة بعد ذلك الحنان الأوَّل من الأمِّ ؛ وكلُّ كلامي في الحبِّ إنَّما هو إملاء هذا القلب على فكره كأنَّه يخلق به خلق تفكيره .

آه يا صديقي ! إنَّ من السُّخرية بهذه الدُّنيا وما فيها : أنَّ القلب لا يستمرُّ طفلاً بعد زمن الطُّفولة إلا في اثنين : من كان فيلسوفاً عظيماً ، ومن كان مغفَّلاً عظيماً !

افترقنا ثمَّ أردت أن أتعرَّف خبره ، فلقيته من الغد ، وكان لي في أحلامي تلك الليلة شانٌ عجيبٌ، وكان له شأن أعجبُ، أمَّا أنا، فلا يعني القرَّاء شأني، وقصَّتي.

وأمَّا هو . . . !!

* * *